ردّ على مرداد

بقلم ف . ق .

أتحفنا الاب يوحنا الحوري بكتابه «الرد على ميخائيل نعيمه في مرداد». فنشكر له تحفته . يكفينا اولاً للثنا. على كتابه اقدامه على الردّ انتصاراً للحقّ والنور ويكفينا لتقدير عمله هذا اعظم تقدير والاعجاب بجرأته فانه قد تعرّض لمن لا يزال عدد كبير من ادباء عصرنا واقفين امامها بذهول ووجل اعني صاحب «النبي» وتلميذه المفضّل صاحب «مرداد» فاننا ما سمعنا منهم في محاضراتهم او كتاباتهم الا من يمدح . وقد رأينا ايضاً صحفاً من خيار صحفنا لا تزال تزين اعمدتها بمنتقيات من هذا او ذاك حتى في مواضيع دينيّة . وكم اخذتنا الحيرة لرؤيتنا اسم جبران يتصدر اول صفحات كتابه لرواية حياة يسوع ونحن نعرف آراء صاحب «النبي» في ابن العذراء .

فأهلاً بكتاب «الردّ» اهلاً بالقلم الحرّ الجريء يُحامي عن الحق والدين يُشهر بمرداد ومبادئه الهدامة ووشاياته الكاذبة . اما كفانا رثاء وتخاذلاً امام فلسفة ينبذها العقل والدين معاً تأتينا متبهرجة متلبسة بثياب الفصاحة الكلامية يتجرّع سمومها السُذّج لحلاوة مذاقها .

اكتفى صاحب «الردّ» في دحض اقاويل مرداد ببيان ما تضمّنته من افتراء واضاليل لكنه لم يتعرّض للاساس الذي عليه بنى مرداد مبادئه الفاسدة لذلك رأينا الفرصة سانحة لبحث الفلسفة التي عليها ترتكز هذه المبادئ ولم يتجرأ صاحب مرداد وسلّمه قبله ان يوضحها في واحد من مؤلفاتها العديدة فانها يلجآن دائماً فيها الى عبارات موهمة ورموز غامضة . فترى جبران يتهجّم متجبّراً و«عواصف» تعابيره تقرقع وتقصف بينما نسمع التلميذ يوقع بنعومة على اوتار قيثارته بحذر وهدوء .

فما هي يا ترى هذه الفلسفة وما رأي العقل المستقيم والدين فيها .

المذهب الفلسفي الذي يعتمد عليه مرداد في تأليه الانسان وتوحيد ذاته

بذات الله وتوحيد الكيان باسره دون تفريق بين خالق وخليقة وتأليه كل عمل يعمله الانسان دون تمييز بين صالح وطالح : وكلها اعمال لله . ورفض كل افراز « انا » من « انت » ولي والك . هذا المذهب الفلسفي هو عريق في تاريخ الفلسفة واشهر الفلاسفة الذين تمسكوا به وعرضوه بجلاء. وحاولوا تدعيمه بالحجج هما اثنان : بلوتان في الجيل الثالث للمسيح وسبينوزا في الجيل السابع عشر واسم هذه البدعة الفلسفية (Panthéisme) اي توحيد الكيان كله في وحدة الله . بموجب تعاليم هذا المذهب انه للكائنات الفردية كلها كيان واحد وذات واحدة هي كيان الله وذاته فتكون اذن هي احوالاً عارضة لهذا الكيان الواحد الضروري هي احوال تتابع مختلفة هي جزء من كيان الله الذاتي منه انبثق واليه يؤول وهذا الكيان واحد فيما نسميه المادة والروح الحيّ والجامد . هذا ما يقوله مرداد للاصحاب السذج الذين جمعهم حواليه ويبرعم بتعاليمه « يكفني الله الوهته التي انتم نُواة منها[1] . ثم الانسان . . . يوحد فيها (في حياته) ذاته ويعود الى عدن عارفاً الوهيته ووحدته مع الله[2] » ثم : « يا ذاتنا التي لا ذات الآها »[3] . وايضاً « قولوا الله انا »[4] . وهذا تعليم استاذ نعيمه نفسه « ان ذاتكم الإلهية بحر عظيم. . . انكم تسيرون معاً في موكب واحد الى ذاتكم الإلهية[5] .

ثم ان وجود الانسان ضروري من ضرورة وجود الله فهو اذن ازلي: « عندما وُلد الانسان في الازل»[6] . كذلك كل عمل يصدر من الانسان هو عمل الله فلا معنى اذن للصالح والطالح كل هذه الاعمال ضرورية لا حُرّة وكأنها آلهية فلا معنى اذن للعدل والظلم والطهارة والدعارة . . . لا يخفى صاحب « النبي » هذا المبدأ بل يقرّه جليًّا اذ ينكر ان يكون معنى لما نسميه الخطيئة(ص٢٣٦) ويقره بنوع أجلى مرارًا صاحب « النبي » مثلاً في كتابه « الاجنحة المتكسرة» (ص٩٨-٩٩) اذ يكلمنا عن اجتماعات رجل مع امرأة متزوجة بعيداً عن الانظار فيقول « . . . لم نخف قطّ عينَ الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير لان النفس اذا تطهرت . . . تترفع عمّا يدعوه الناس عيباً وعاراً وتتحرر من عبودية الشرائع

١) ص ٢٠٩ ٣) ص ٢٣٨ ٥) النبي : ص ٤٧
٢) ص ٢٣٢ ٤) ص ٢٥٥ ٦) مرداد : ص ١١٤

والنواميس . اما الذين سيعيشون سعيي كرمه محاولين تلويث اسمها لانها كانت تترك منزل زوجها لتختلي برجل آخر فهم من الشقاء . . . »

وما يكون معنى الشرائع والنواميس والتقاليد حيث لا خير ولا شرّ بل اعمال الله : ضرورية بضرورة وجود الله .

كذلك لا معنى للسرقة والناس كلهم « انا » فكل ما لهم هو لي . . . فالسارق يأخذ ما هو له .

وما يكون معنى الدين والانسان هو الله فهل يسجد الله لذاته والى من يرفع صلاته وهو هو الله فلا حاجة له فهو كل شيء وكل شيء هو هو . . . هذا ما علمه مرداد « لنوح » قبل ان يكشفه لساكني الفلك . . .

على هذه الفلسفة اذن يريد صاحب مرداد ومعلمه ان نبني المجتمع البشري وعلى مبادئه ان نبني حياتنا بكل اعمالها وان نحكم على اعمال الله فينا وفي الغير : على هذه المبادئ يُبنى السلام ويتوطّد النظام في العالم ويحيا فيها الانسان حياة شريفة لا تفرق بين خير وشرّ ولي والك وانا وانت .

هكذا علم مرداد « نوحاً منذ الازل » وهكذا تعلّم مردادنا من معلمه يوم تعارفا في الزمان وهما واحد منذ ازل الكيان .